
جامعة جالا الإسلامية - تايلاند
كلية اللغة العربية

الأستاذ الدكتور
أحمد مصطفى أبو الخير
خادم في محراب اللغة العربية

دستور اللغة العربية

(الحلقة الثانية)

الناشر
دار الأصدقاء بالمنصورة
رمضان ١٤٣٠ هـ - سبتمبر ٢٠٠٩ م

www.geocities.com/abu_elkher
www.askzad.com
abu_elkher@yahoo.com

الإهداء

إلى جامعة جالا الإسلامية (تايلاند) جامعة صاعدة واعدة ، أضاءت شمعة واحدة في عمرها القريب ، وإلى رئيسها ومؤسسها الشغوف بالعرب والعربية ، الأستاذ الدكتور إسماعيل لطفي .

الأستاذ الدكتور

أحمد مصطفى أبو الخير

خادم في محراب اللغة العربية



المادة السابعة

{٧}

نظرية اللغات السامية أصبحت مشرَّخة ومهللة
فكل هذي اللغات التي ادعي أنها سامية
كلها كلها خرج وخرج من عباءة العربية
وقد رأينا الحبشية والأمهرية مثلا مؤكدا لما قلنا

قبل أن نتحدث عن هلهلة النظرية السامية وتهافتها نلقي الضوء على نشأتها، وأولِ من قال بها ؟ إنه الألماني شلوتزر الذي أطلق لقب الساميين على الشعوب الآرامية والفينيقية والعبرية والعربية واليمنية والبابلية - الآشورية ، وما انحدر من هذي الشعوب ، وكان هذا نهاية القرن الثامن عشر الميلادي.

وقد اقتبس هذا من سفر التكوين الذي أشار إلى أن أولاد نوح - عليه السلام - سموا بـ (سام وحام ويافت) فأولاد سام هم عيلام وآشور وأرفكشاد ولود وآرام ، وقد ولد لأرفكشاد شيلاس ولشيلاس عابر ، وهو ابن العبريين [١].

وأول نقد وجه لهذه النظرية جاء من أصحاب النظرية نفسها ، كيف ؟ فقد لوحظ أن سفر التكوين قد اعتمد في تقسيمه على الروابط السياسية والثقافية والجغرافية أكثر من اعتماده على القرابات والروابط بين الناس ، ومن ثم وقع في أخطاء عديدة.

---

(١) وافي : فقه اللغة ، ص٢.

ولكن من أول من استخدم هذا الوصف لهذي الساميات ؟ مرة أخرى الألمانيان شلوتزر وإيكهورن ، أيضا أواخر القرن الثامن عشر ، العلامة الدكتور علي عبد الواحد وافي ذكر هذا في كتابه القيم (فقه اللغة [1]) نقلا عن رينان في كتابه (التاريخ العام للغات السامية ، ص٤٣ ، وعن كتاب آخر لبروكلمان ، وقد صدر الكتابان باللغة الفرنسية.

العقل المستقيم والفكر القويم يعجبان : كيف عاشت هذه المنطقة القرون الطوال منذ آدم وإدريس وإبراهيم ويعقوب ويوسف ـ عليهم السلام ـ إلى أن حل القرن الثامن عشر وآخره حتى يأتي الألمانيان العبقريان يقولان لأبناء هذه المنطقة ذات الحضارة العريقة ، خاصة الحضارة العربية الإسلامية التي بزغ نجمها مع انصرام القرن السادس الميلادي ، وبزوغ نجم القرن السابع : أيها الناس أنتم ساميون ، أو أنتم الساميون.

وهذي الحضارة العملاقة الإسلامية التي استمرت قبل شلوتزر ورفيقه قرابة ١٢ قرنا والتي برز فيها مفكرون وعلماء وفلاسفة وأدباء على مر هذي القرون ، لم يلتفت فيهم أو منهم أحد ولم ينتبه فيهم واحد يكتشف فينا هذه السامية ، هل هذا ممكن معقول متعقل ؟

محمد ـ صلى الله عليه وآله ـ منذ بدايات القرن السابع الميلادي ذكر كليمة من جوامع كلمة ، وقليلا ما نقرأ مثل هذي الكليمات ، حيث إننا نركز في أحاديث المصطفى على كتب بأعيانها ، لا نجاوزها ، وليت الأمر عند هذا الحد يقف وينتهي ، كلا : إننا أسرى أحاديث بأعيانها ، لا نحفظ غيرها ، لا نعرف غيرها ، وأحيانا لا نريد أن نعرف غيرها.

---

(١) ص٣.

المهم المهم ، لديَّ من جوامع الكلمُ ما يفيد في هذه القضية ، كتيب صغير لابن حجر الهيثمي (ت ٩٠٩هـ) في الباب الأول منه (فصل في أب العرب [١]) جاء ما يلي :

في حديث الترمذي وغيره ـ وسنده حسن ـ عن سَمُرة عن النبي ـ صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم ـ قال :

سام أبو العرب

وحام أبو الحبش

ويافث أبو الروم

هذا الكتيب الصغير عنوانه (مبلغ الأرب في فخر العرب [٢]) الذي صدَّر كتابه في أول باب وأول فصل بهذا الحديث المهم الذي ربما يحل المسألة ويفك اللغز ، فبما أن سام هو أبو العرب ، والعرب هم أبناء سام ، ومن ثم يمكن القول بأن الساميين همُ همُ العرب ، فقط أراد شلوتزر وزميله أن يحلوا اسما آخر مكان العرب ، تماما تماما ، كما يفعل بعض مبغضي العرب الآن عندما يصرون على استبعاد اسم العرب من معاجم السياسة والتاريخ والحياة والسياسة ، ينأون عن اسم : العرب ـ العالم العربي ـ الشعب العربي ـ المنطقة العربية إلى : الشرق الأوسط ـ شعوب الشرق الأوسط ـ منطقة الشرق الأوسط ... الخ.

على أي الأحوال فقد رأينا أن الحبشية القديمة والحديثة والأمهرية وحروفها كل هذا جاء من عباءة العربية ومن حروفها بكل توكيد.

كما تأكد لنا من خلال حركة الناس والشعوب وأنبياء الله عبر التاريخ أن هذي

---

(١) ص١٩.

(٢) حققه ونشره الأستاذ مجدي السيد إبراهيم ، نشر بالقاهرة ١٩٨٧.

المنطقة التي يزعمون أنها منطقة اللغات السامية من العراق إلى شرق الحبشة ومصر ، عبر الشام وفلسطين والجزيرة واليمن ... الخ كانت منطقة لغوية واحدة ، لها لهجات من العربية متفرعات آتيات ، مع تباين درجة الاختلاف بين لهجة وأخرى ثم تطورت هذي اللهجات أو هذي الاختلافات ، إلى أن أصبحت لغات متنقلات ، وإن كانت الأم واحدة هي العربية ، أو على الأرجح أريد من البداية لهذي اللهجات أن تكون لغات مستقلة ، لها نظام للأصوات وللصرف والنحو ، ولها معجم خاص بها.

تماما تماما كما يفعلون الآن عندما يَنْظرون ويُنظِّرون للهجات العربية الحديثة على أنها لغات مستقلات منبتة منقطة منقطعة عن اللغة العربية ، ولديهم مؤلفات وكتيبات تبشر بهذه الفرية ، وتطلق المباخر لتزييف الواقع ، كما زيفوا التاريخ ، فالشعب العربي الواحد من المحيط إلى الخليج هو - في نظرهم وتزييفهم - هو شعوب شتى غير متآلفة ، ولا متسقة.

هذه الفرية التي يرد عليها واحد من غير بني جلدتنا ، إنه المستشرق الروماني نيقولا دوبريشان ، حيث يقول : (توكد وتثبت متابعة الأدب العربي طيلة تاريخه الواقع أن اللغة العربية لغة واحدة موحدة ، ذات رسالة خالدة ، لم يتغير صرفها على مدى القرون إلا تغيرا ضنيلا ، حفظت اللغة العربية أكبر جزء من متنها ومفرداتها ، غير أن معاني هذي المفردات توسعت وتطورت ، وأثرت باستمرار وفق تطور الحياة والتفكير الإنساني ، والحضارة والعلم والتقنية).

ويمثل استقرار اللغة العربية ووحدتها - جنبا إلى جنب مع الدين الإسلامي - مقومة أساسية من مقومات وحدة الأمة العربية، وأرى من واجبنا - بوصفنا أساطين العلم اللغوي - في مجال الاستشراق أن نسهم في ترويج قيم الحضارة العربية والأدب العربي ، وحماية اللغة العربية ، بل والأمة العربية الواحدة ، مع لغتها وأدبها ،

رافضين بحجج ومبررات علمية المقولات الباطلة بوجود لغات وأمم عربية، والتي يحاول بعض زملائنا من المستشرقين ـ والقلائل من العرب ـ اعتمادها وفرضها.

إن اللغة العربية لغة واحدة وفريدة ، والأمة العربية واحدة ، وستبقى هكذا أبد الآبدين ، ويخدع نفسه من يتصور أو يتخيل أن رجال السياسة والثقافة والعلماء واللغويين العرب لا يدركون من وما يقف ويختفي وراء هذه الأباطيل.

ويختم دوبريشان كلامه الشيق الشائق باعترافه : (على الأقل هذه قناعتي دائما ، وهذا كان موقفي في الظروف والأحايين كافة [1]) نعم القناعة ، ونعم الموقف يا دوبريشان.

ولكن ما قيل من كلامنا أو كلام نيقول قد يكون كلاما عاما مرسلا مسترسلا ، وهو وإن كان غير هذا بكل توكيد وثقة إلا أننا نضيف ما يلي :

سبق وأن رأينا أن الحبشية ـ القديمة والحديثة ـ كلاهما خرج من عباءة العربية ، وأعطى أمثلة أخرى على ما أقول كيف ؟ هذا شيء مما في الجعبة :

الدكتور عوني عبد الرءوف وهو من أساطين ما يسمى بالساميات ، بقية جيل في هذا التخصص رحل أفراده عنا ، وكان الرجل قد درس لنا اللغة العبرية في كلية دار العلوم نهاية الستينات ، فمما يقول :

الكنعانية : هي لغة القبائل العربية التي نزحت إلى شمال الجزيرة واستوطنته، وامتد سلطانها حتى شاطئ البحر الأبيض حوالي الألف الثاني قبل الميلاد ، وهي تشمل اللهجات الآتية : (الكنعانية القديمة ـ الفينيقية ـ العبرية) ويقول عن الأخيرة

---

(١) المجلة العربية للثقافة ، تولى ٢٠٠٢ ، ص٩٣ ، ٩٤.

ونعني بها عبرية العهد القديم من الكتاب المقدس ، بخلاف العبرية الحديثة ، وهي لغة الآداب اليهودية التي ألفت بعد العهد القديم.

لاحظ في النص السابق ما يلي :

١- هو يقول : (هي لغة القبائل العربية التي نزحت إلى ....) ماذا تكون لغة القبائل العربية ، لابد أنها العربية ، وما تفرع عن هذي القبائل لا يكون إلا لهجات عربية.

٢- هو يقول عن العبرية بأنها إحدى لهجات هذه القبائل العربية التي نزحت إلى ... أو بالأحرى : العبرية إحدى اللهجات الكنعانية ، أي العربية أيضا.

صحيح أن هذي اللهجة العبرية التي تفرعت من الكنعانية تغيرت كثيرا وكثيرا جدا بعد العهد القديم ، أو بعد عبرية العهد القديم ، ثم حدث التطور الأكبر والأضخم في تاريخها بعد إقامة الدولة العبرية عام ١٩٤٨ وإلى الآن.

وعندما يتحدث الدكتور عوني عن المهد الأصلي للقبائل العبرية يشير إلى أن: (مميزات الحياة الصحراوية بارزة جدا في اللغة العبرية [١]) وهذا ما يتسق مع مقولته السابقة من أن العبرية إحدى اللهجات الكنعانية ، وهذه الأخيرة هي لغة القبائل العربية التي نزحت من الجزيرة العربي إلى الشمال، أي شمال شعبة الجزيرة أولا ، ثم فلسطين بعد ذلك ، وعلى ساحل المتوسط.

ومرة أخرى مع الدكتور عوني يقول : (العبرية إذن لم تك لغة قائمة بذاتها ، ولكنها تتكون من مجموعة لهجات كنعانية) لاحظ أنه يقول : (تتكون من مجموعة لهجات كنعانية [٢]) .

---

(١) راجع كتاب : قواعد اللغة العبرية ، ص١٦ ، ٧.
(٢) السابق ، ص١٣.

باحث آخر ، هو عوني النتشة ، يقول : (كل هذي اللغات السامية قد تفرعت عن اللغة السامية الأولى ، لغة سام بن نوح) وما السامية الأولى إلا العربية ، وبما أن سام هذا هو أبو العرب ، أصل العرب ، إذن هو أصل العربية وأصل هذا الشعب العربي وليس السامي.

هذا الباحث نفسه يقول في مكان آخر : (وتعد العبرية أهم اللهجات الكنعانية) لاحظ : أهم اللهجات ، إذن هي لهجة وليست لغة ، أي في الأصل والأساس ، والمنشأ.

نعم هي تطورت وتطورت كثيرا ، ولكن هذا حدث حديثا جدا جدا ، عندما استخدمت أداة لمشروع الدولة العبرية ، منذ متى كان هذا التحول وذياك التطور (منذ القرن التاسع عشر الميلادي [1]) فقط ؟ فقط.

آخر ما أقول عن العبرية إن حروفها أيضا مقتبسة من الحروف العربية القديمة جدا والتي تستخدم مفرقة مفردة غير متصلة وتكتب من اليمين إلى اليسار ، كما في العربية ، حيث إن العربية طورت نظام الكتابة فيها حتى وصل قمة النضج والكمال والجمال.

وقد استدللنا على هذا ببعض الحروف مثل الشين ש هي نفسها الشين القديمة العربية سـ ، والسين ، وقد وصلت إلى هذي القناعة من خلال إمعان النظر في الحروف العربية القديمة ، وفي حروف العبرية المقطعة المفرقة غير المجمعة أو الموصّلة.

---

(١) النتشة تعلم اللغة العبرية ، ص١٦.

ولكن أهذا كل ما في الجعبة ؟ كلا وألف كلا ، مجمع اللغة العربية يصر في بدء كل مادة من مواده على النص على ذات الكلمة فيما يسمى باللغات السامية ، إن هذي المادة العلمية الدسمة في بداية كل مادة هي ثروة لا يستهان بها تثبت في النهاية ، وفي البداية أيضا أن جميع هذي اللغات إنما جاءت كلها كلها من مشكاة واحدة ، وهذه أمثلة ، ليس إلا :

١- في مادة (خ ب أ) ومعناها الستر والإخفاء ، هي في :

- الحبشية (خَبْأ) بفتح الخاء ، وسكون الباء ، وفتح الهمزة.
- والأكادية (خَبْوْ) بفتح الخاء ، وسكون الباء والواو.
- والعبرية (حابا).

وهي في اللغات الثلاث بمعنى : (خَبَأ وستر)

- وفي السريانية (حُوفيا) أي : (ظلام).

٢- مادة (خ ف ر) بمعنى الحياء والحراسة والحماية هي في :

- الحبشية (خَفَرَ) حمي ودافع عن ... أو : خجل وخاف.
- والعبرية (حَبَرَ) حمى ، دوفع عنه.
- وفي العبرية أيضا (حافير) خجل.
- والسريانية (حَفَرْ) بحاء ممالة ، بمعنى خجل.

٣- مادة (ث ر ط م) أطرق من غضب أو تكبر ، وهي في الأكادية (سَمَتُ) وفي السريانية (تَرْمُتَ) بمعنى : الإطراق في كبر.

٤- وفي مادة (د ق ق) بمعنى الصغر والحقارة أو الكسر والتهشيم ، وهي :

- في الحبشية (دَقَّ) بالإدغام ، أو : (دقق) بالفك دون إدغام ، بمعنى دقّ ، جعله صفيرا ، طحن.
- وفي العبرية (داقَقْ) كسّر وحطّم.

- وفي السريانية (دَقْ) و (دَقا) دقّ ، وكسّر إلى قطع صغيرة.

إن النظرة العجلى الواهلة لبادي الرأي والبصر تشي بأن هذي اللغات جميعا قد جاءت من مشكاة واحدة ، ومن عباءة واحدة ، وأصل واحد ، فالتقارب واضح واضح ، والاختلافات في النطق أو الدلالة منطقية جدا ومبررة إلى حد بعيد.

ليس هذا فقط ، لكن تعالوا ننظر إلى ما قال أصحاب نظرية السامية من تقارب بين هذي اللغات الذي يوكد أنها جميعا من ماعون واحد ، وأرومة واحدة.

هذا العلامة علي عبد الواحد وافي في كتابه فقه اللغة يعدد التقارب بين اللغات السامية ، نجد هذا التقارب لم يأت من فراغ ، ولا يمكن أن نجد له نظيرا بين مجموعة ما من لغات العالم ، هذا التقارب الذي يمكن تلخيصه فيما يلي :

١- يتألف الأصل السامي (الاشتقاقي - في الغالب - من ٣ صوامت مختلفة ، مثل : (ق ت ل - ض ر ب - ف ع ل ... الخ) [١].

٢- لا تكاد توجد في اللغات السامية كلمات تشتمل على أكثر من أصل واحد ، في حين يكثر هذا في اللغات الهندية - الأوربية ، خاصة الحديث منه ، وكل كلمة من هذا القبيل تدل على معنى مركب من معاني الأصول التي اشتملت عليها.

وإن كان هذا يحدث قليلا في اللغات السامية ، وأظهر ما يكون هذا في الكلمات المنحوتة ، مثل : (حوقلَ - بسمل - درعمي - عبشمي [٢] - كأنّ) أي :

- لا حول ولا قوة إلا بالله.
- بسم الله الرحمن الرحيم.
- دار العلوم.

---

(١) راجع تفاصيل هذا الموضوع ، ص١٢.
(٢) راجع ص١٨٠ - ١٨٣.

- عبد شمس.
- كاف التشبيه + أنّ ← كأنّ.

٣- ينظر إلى الصوامت على أنها أكثر أهمية من الحركات وذلك في الدلالة والرسم ، خاصة القديم منها.

٤- ليس للفعل في اللغات السامية إلا زمنان اثنان فقط ، الماضي الذي انتهى زمنه ، وآخر لم ينته زمنه ، وهو المضارع للحال والاستقبال ، ثم الأمر وهو للاستقبال فقط ، هي على الأكثر ٣ أزمنة : ماض وحال واستقبال.

٥- يحدث في الغالب تأنيث الاسم والصفة في اللغات السامية بإضافة تاء إلى المذكر.

٦- تتشابه اللغات السامية في كثير من المفردات ، خاصة المفردات الدالة على أعضاء الجسم والضمائر وصلة القرابة والعدد وكثير من الأفعال ، ومرافق الحياة الشائعة في الأمم السامية.

وبرغم بعض ملاحظاتنا على شيء من تفاصيل ما قيل فإنا نوافق على الفكرة العامة هنا ، خاصة في النقطة الأخيرة التشابه في المفردات الدالة على أعضاء الجسم والضمائر وصلة القرابة والعدد ، بل وغيرها .. كل هذا لا يأتي من فراغ ، وإنما أتى من كون الأصل السامي واحدا ، وهو العربية في نظرنا.

وحين حاول الدكتور علي عبد الواحد وافي رصد وجوه الاختلاف بين اللغات السامية لم يجد غير صفحتين ثنتين فقط ، فجاءت وجوه الاتفاق في حوالي خمس صفحات ، وفي ٦ نقاط.

وجوه الاختلاف نقاط قليلة ، بل ويمكن تبريرها ، مثل :

أداة التعريف الـ في العربية ، وهي في بعض اللهجات العربية القديمة أو الحديثة وفي العبرية هاء مفتوحة ، فالهمزة المفتوحة في الـ تحولت إلى هاء ، حيث كلا الصوتين ، الهمزة والهاء من مخرج واحد محدد ، هو الحنجرة ، لذا صح الإبدال والتحول والتطور من الهمزة إلى الهاء ، وهذا له شواهد كثيرة في القراءات القرآنية وفي اللهجات العربية ، مثل : أأنتم ← أهنتم ، تحولت الهمزة الثانية إلى هاء.

كما نكر بعيض -تضغير بعض - وجوه الخلاف بين العبرية والعربية في الأصوات ، والاختلاف في بعض الأسماء في اللغات السامية ، وهذا شيء بدهي ومبرر ومنطقي ، تماما تماما.

وهكذا نخلص من كل ما سبق أن ما يسمى باللغات السامية إن هي إلا لهجات عربية ، ربما تحولت في وقت متأخر ، كما حدث للعبرية في القرن العشرين ، أو أريد لهذي اللهجات أن تكون لغات مستقلات ، كما يفعل بعض المحدثين مع اللهجات العربية الحديثة والمعاصرة.

وكما يقول دوبريشان المستشرق الروماني : هذه قناعاتي ، هذه قناعاتي ، هذه قناعاتي .

المادة الثامنة

{٨}

بقيت العربية لغة شفاهية ، تعتمد على المشافهة فقط وبشكل رئيس ، وحين استوت على عودها فشت الكتابة والقراءة بين متكلميها ومتعلميها بعد البعثة الشريفة عام ٦١٠م.

من الصفات التي قدمها القرآن الكريم للعرب ، صفة (الأمية) وكذا نبي هذي الأمة ، وصف بتلكم الصفة في آيتين ثنتين ، هما :

- (الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ [١]).
- (فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ [٢]).

أول شيء يلاحظ على الآيتين ، أنهما جاءتا من سورة واحدة ، هي سورة الأعراف ، وهي سورة مكية ، أي أن تيك الصفة أعطيت لنبي الأمة منذ بداية الدعوة وفجرها ، والملحوظة الثانية أن محمدا -صلى الله عليه وآله - وصف في الآية بالنبوة والرسالة، كأن الباري - عز وجل - قصد قصدا إرسال رسول أمي من العرب ، هو منهم ، وهو أمي مثلهم.

---

(١) ١٥٧ الأعراف.
(٢) ١٥٨ الأعراف.

آية أخرى توضح القضية ، لماذا كان الرسول إلى العرب أميا ؟ ليكون متماثلا مع قومه الأميين ؟ كلا ، إن آية العنكبوت ، وهي سورة مكية أيضا توضح القضية ، إنها قوله تعالى : (وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ [1]).

لقد قصد الإله قصدا أن يكون محمد ـ صلى الله عليه وآله ـ أميا ما عرف كتابا قرأه ، ولا شيئا كتبه ، وإلا لطعن الطاعنون وشكك المشككون المبطلون بأن هذا مما يقرأ أو يكتب غيره.

وبرغم هذا فإن صناديد الكفر ادعوا كذبا وزورا : (وَقَالُوا : أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً [2]) هذه الآية أيضا مكية ، يرد القرآن الكريم في سورة مكية أيضا هي النحل [3] : (وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ : إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ).

ادعى هؤلاء العباقرة من مشركي قريش أن عبدا روميا كان يسكن مكة ، له علم بالكتب السابقة ، كان يعلم محمدا ما يقوله من القرآن ، يمليه عليه بكرة ، وأصيلا ، وكان يدخل ويخرج على النبي يتعلم منه ، ويقال كان اسمه (بلعام).

يرد القرآن : (لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ...) لسان هذا العبد الذي يلمحون إليه كان أعجميا، لا يسطيع أن يفصح أو يبين ، ومحمد (ﷺ). وهذا القرآن ، لسان عربي مبين ، جاء بلغة عربية واضحة فائقة متفوقة ، لا مقارنة بينها وبين لغة بلعام.

(١) ٤٨.
(٢) ٥ الفرقان.
(٣) ١٠٣.

فالعجمي - وجمعه عجم - هو خلاف العربي - وجمعه عرب - فقط ، وهو يفصح ويبين بلسانه غير العربي ، أما الأعجم - وجمعه أعاجم - فهو الذي لا يفصح ، ولا يبين ، ولو كان عربيا خالصا ، وفي اللغة : الحيوان الأعجم: الذي لا يفصح ولا يبين، لا نعرف ماذا يريد ، ولا يعرف ماذا نقول ، والجمع : (أعاجم).

أما (أعجمي) فهو مبالغة من (أعجم) وزيادة في معناها ومبالغة ، قال تعالى (وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الأَعْجَمِينَ ۞ فَقَرَأَهُ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ [1]) لو نزلنا هذا القرآن على بعض هؤلاء الأعجمين - بلعام أو غيره - فقرأه عليهم ، ما آمنوا به ، قال تعالى : (وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآناً أَعْجَمِيّاً لَقَالُوا لَوْلا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ[2]...) أي هل يمكن لهذا الأعجمي أن يقرأ قرآنا عربيا واضحا بهذي الصورة.

وربما كان بلعام أو غيره ممن ادعى على محمد أنه كان يملي عليه القرآن ربما كان مثل بعض الأجانب الذين يعيشون في بلد لا يجيدون لغته ، ولا يستطيعون بسهولة أن يعبروا عن أنفسهم ، كما كان بعض الأجانب (الخواجات) يعيشون في مصر ، ولا يتمكنون من الفصحى ، ولا العامية المصرية.

على أي الأحوال : إذا كان جمع أعجم هو أعاجم ، فما جمع (أعجمي) ؟ إنه (أعجمون) في الرفع ، و(أعجمين) في الرفع والنصب.

بعد ذلك كله تخلص إلى أن كلمة (الأمي) مفردة بالألف واللام معرفة ، إنما جاءت لوصف الرسول النبي (الأمي) فكيف جمع هذي الكلمة في القرآن ؟ :

١- جاءت كلمة (أميون) مجموعة منكرة مرة واحدة ، في سورة البقرة ، وهي مدنية ، حيث الحوار هنا مع أهل الكتاب خاصة اليهود ، أما الحوارات السابقة

(١) ١٩٨ الشعراء.
(٢) ٤٤ فصلت.

حول أمية الرسول (ﷺ) ولسان الذي يلحدون إليه ، فقد كانت كلها مع صناديد قريش في المرحلة المكية.

الآية المقصودة من سورة البقرة هي : (وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لاَ يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلاَّ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ [1]).

ومنهم ، أي من اليهود أناس ، لا يعلمون من الكتاب شيئا ، أي من التوراة ، يتكلمون بالظن والأماني ، هم يدعون أنهم أهل الكتاب ، أي أهل العلم والمعرفة بالكتاب ، وحقيقة الأمر غير هذا ، إنهم أميون ، أي : لا يعلمون من الكتاب شيئا ، لم يقرءوا منه حرفا ، ولا يسطيعون أن يكتبوا منه شيئا ، هذا معنى الأمية والأميين هنا، أي الجهل التام بالشيء ، كما نقول : (الأمية الحاسوبية) أي الجهل التام بهذا الجهاز ، الحاسوب.

٢- كلمة (الأميين) معرفة وبالياء وردت في القرآن ٣ مرات ، هن :

- (هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ [2]) أي من الأميين.
- (ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ : لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ [3]).
- (وَقُل لِّلَّذِينَ أُوْتُواْ الْكِتَابَ وَالأُمِّيِّينَ [4] : أَأَسْلَمْتُمْ ؟).

(الأميون - الأميين) مفرد أمي ، الذي لا يقرأ ، ولا يكتب ، أي العرب والذين أوتوا الكتاب : أي اليهود والنصارى ، أما القائلون : ليس علينا في الأميين سبيل فهم اليهود ، أي ليس علينا حرج ولا إثم - في دينهم - أي في دين اليهود ، في أكل

---

(١) ٧٨ البقرة.
(٢) ٢ الجمعة.
(٣) ٧٥ آل عمران.
(٤) ٢٠ آل عمران.

أموال الأميين ، وهم العرب ؛ فإن الله قد أحلها لهم ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

ويفسر الرسول (ﷺ) الأمية لدى العرب في بعض أحاديثه ، فيقول : (إنا أمة أمية ، لا نكتب ، ولا نحسب الشهر ، هكذا وهكذا وهكذا) الحديث [1].

وهكذا عاشت العربية في كنف الأمية لغة شفاهية ، حتى استوت على سوقها، وعجم عودها ، وتجذرت خصائصها ، وتثبتت أوتادها ، وفي هذا الإطار يرى العلامة العقاد أنه لا لبس بين مخارج الأصوات العربية ، ولا إهمال لمخرج منها ، ولا حاجة إلى تكرار النطق من مخرج واحد ، وبنفس الطريقة ، فالهمزة والهاء كلاهما من الحنجرة ، لكن الأول انفجاري ، والهاء احتكاكية.

جميع المخارج مستعملة في الأصوات العربية ، ومتميزة بأصواتها ، ولو لم يك بينها غير فرق يسير طفيف في حركة جهاز النطق ، ليس في العربية صامت يلتبس بين مخرجين [2]... الخ.

ونحن نعقب على كلام العقاد بأن هذا كله وغيره من الثمر اليانعة النضرة للشفاهية التي صاحبت العربية مذ كانت إلى انبلاج فجر الحضارة الإسلامية العظيمة في القرن السابع الميلادي.

إن هذا يشبه إلى حد ما الكاتب الذي بدأ حياته ، ليس بالكتابة ، لكن بالتدريس والتعليم والمحاضرة ، ثم استمر في هذا العمل ، بعدها امتهن الكتابة أو مارس الكتابة ، إنه ينقل أسلوب المعلم المحاضر إلى تقنيات كتابته ، التي تصبح حيوية

(١) تفسير ابن كثير ١١٦/١.
(٢) اللغة الشاعرة ، ص٣٨.

ودفاقة ومتفاعلة وشديدة الفهم والوضوح ، كما لو كان وهو يكتب يخاطب تلامذته ومريديه الماثلين أمام ناظريه ، فيفهم القارئ بذات الطريقة المتأنية المتندة ، أو كما يقول المثل (قطرة قطرة تملأ الجرة) قطرة قطرة من العلم والمعلومات والتفهيم ، يصل بمريديه إلى حيث يريدون ، ويطمح ويطمحون.

على أي الأحوال فقد كان من ثمار هذي الشفاهية الطويلة عبر القرون - في رأينا - ما يلي :

١- العربية عذبة في الأسماع : ومرة أخرى نستشهد بشاهد من غير بني يعرب ، بل لم يك يعرف العربية ، ولا يفهمها ، جاء في كتاب الحملة الأمريكية [١] : (السفير هارت الذي خلفه هوران سفيرا للولايات المتحدة في الرياض ، بعد أن أصبح الأول مساعدا لوزير الخارجية الأمريكية يقول : هيوم هوران يتكلم العربية بطلاقة ، بعد أن أقسم اليمين كسفير بدأ ينشد أبياتا من الشعر العربي ، يحفظها عن ظهر قلب ، لست أعرف ما هي ، لكنها كانت عذبة في الأسماع).

أرأيتك هذا الدبلوماسي الأمريكي المخضرم ، هو لا يعرف الأبيات . ولا يعرف العربية ، لكنه أحس بأن هذي الأبيات عذبة في الأسماع.

٢- وضوح الأصوات والمقاطع : تتميز العربية بوضوح المقاطع والأصوات ما يجعل من السهل على المستمع - حتى لم يك يعرف العربية - أن تلتقط أذنه ما يسمعه ، وهذا ما يحدث مع العربية فقط ، لا غيرها ، فإذا استمع أحد إلى متكلم بلغة أجنبية عنه فإنه لا يسطيع أن يميز بسهولة الأصوات والمقاطع ، ويصعب التقاطها ، فإذا استمعت إلى الإنجليزية - مثلا - أو الفرنسية ، أو غيرهما ، ولم

---

(١) ص٤٥٢.

تك تعلمتها فإنك في الغالب لا تتمكن من التقاط شيء ، إلا إذا تحدث الطرف الآخر ببطء غير عادي ، أو كانت كلمة أو كليمات قليلة.

وكانت هذي السمة إحدى قاطرات التعريب ، حيث من السهل أن تلتقط الأذن الكلام العربي ، حتى لو كان متصلا مطولا ، وكانت تلكمُ السمة أيضا سببا مهما في انتشار العربية خارج وطنها الأول ، أي من العراق شمالا حتى الشام وفلسطين مرورا بالجزيرة واليمن وحتى شرق الحبشة ، وانتهاء بمصر.

بل إن وطن العرب الحالي من المحيط إلى الخليج ، ومن الشمال إلى الجنوب، تتجاوزه العربية ، وتسير في خط العالمية إلى كل صقع ورجا وركن من أركان العالم وأرجائه وأصقاعه ، بفضل هذه الميزة المهمة.

ففي القرآن الكريم وصف اللسان العربي بأنه لسان عربي مبين ، شديد الوضوح ، يتلقنه الصغار والكبار بسهولة ويسر ، قال تعالى :

- (وَهَـذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ [1]).
- (بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ [2]).

وقبل أن نترك الشفاهية التي طبعت العربية قرونا قرونا طوالا ، نثبت شيا / شيئا مما قال المستشرق والدبلوماسي الأمريكي هيوم هوراني ، والذي قدم أعظم إطراء للغتنا ، فمما قال :

- اللغة العربية كلم الله ، سبقته رسالات بلغت للناس على نحو أو آخر ، لكن القرآن الذي نزل عربيا - ليس تاريخا أو سيرة مثل الإنجيل - بل هو وحي منزل من السماء ، ولذا فالعربيةِ أكثر اللغات وشيجة - صلة - مع السماء.

(١) ١٠٣ النحل.
(٢) ١٩٥ الشعراء.

- إنها بهذا تختلف عن الإنجليزية التي تمثل كاتدرائية متشابكة الأركان ترحب بالقاصدين ، نعم الإنجليزية أكثر اللغات كاثوليكية.
- أما العربية فهي نظام محكم الإغلاق ، تقاوم استعارة الكلمات ، مثل جهاز يروعك منه المنطق ، ثم تبهرك سلاسته وسهولة أدواته ، إذ يبد بالحركة ، وينتفض بالوجيب ، أي الخفق والاضطراب.
- ما إن يتوافر لك معرفة السوابق واللواحق من الكلمات فتودعها ذاكرتك ، ومعها الأفعال المجردة ، الثلاثية الصوامت ، يصبح بوسعك أن تشكل أية كلمة تخطر على البال ، يبدو الأمر وكأنه التحام نطفة بأخرى ، في إطار يستمد أصوله من العقيدة حيث المدد كثيف وعميق.
- أين هذا من الإنجليزية ، لا سبيل إلى أن تعيش المعاني الأصلية للكلمات إلا إذا درست اليونانية أو اللاتينية.
- والمشكلة الأخرى أن العربية من أجمل ما تسمعه الأذن من إيقاع ، ومن ثم تجد نفسك ترتبط بأكثر من سبب مع هؤلاء القوم بحكم أسلوب البلور الذي تتشكل به لغتهم في فضاء الله الواسع.
- لذا أعرف كيف قصر المترجمون الإنجليز عن مجاراة معاني القرآن ، من آياته ما يمكن اعتباره استكمالا لتشريعات التوراة.
- لكن لله در القرآن - إنه يأخذك عبر سورة البقرة في تكرار ونيد ، ثم إذا به يروعك بوحي يتفجر بسرعة البرق ، يفاجئك ، يزلزل كيانك بمعدل ٣٠٠٠ قدم في الثانية الواحدة.
- ويقول أستاذ هوران سير هاملتون جب تعقيبا على بعض كلام تلميذه : إن الوسيلة التي اختارها العرب للتعبير عن الجمال كانت الكلمة واللغة ، وتلك أروع الفنون فتنة ، وأشدها خطرا.

وقبل أن نعقب على ما قال هوراني، نذكر لماذا اخترنا هذا الرجل، دون غيره ، أو دون غيره من المستعربين ، وهمُ كثر ؟

هل لأنه أجاد العربية ، وبز أقرانه وغيرهم ؟ نعم ، لقد تعلم العربية في معهد تعليم اللغة العربية في بيروت ، ولو سألت أيا كان في إدارة الشرق الأدنى في الخارجية الأمريكية عن أعظم مستعربيها طلاقة في لسان العرب ؟ إن هي إلا لحيظة حتى تأتي الإجابة في كلمتين ، هما (هيوم هوراني) المستعرب الوحيد الذي أكمل مقرر الواحد والعشرين شهرا في ١٢ شهرا فقط ، بل حصل على أعلى الدرجات في مقرر اللغة العربية.

لقد كان أكثر من بليغ تضلع في العربية ، وكأنها لغته الأم ، الثانية بعد الإنجليزية ، لقد انشغل في بيروت بترجمة رواية محببة إلى العرب ، هي (نداء المجهول) لمحمود تيمور ، وفي ليبيا كان يعكف على النظر في منهج دراسي في الشريعة لحساب إحدى الجامعات الإسلامية.

وهكذا وصفه زملاؤه في الخارجية الأمريكية بأنه كان يتكلم العربية بطلاقة ، بل كان أفضل من تكلم العربية في تاريخ إدارة الشرق الأدنى ، كما سبق.

هل إجادته بهذه الطريقة للغة العربية هي التي رشحته للاستشهاد بكلامه فقط؟ كلا ، لقد أجاد أيضا عدة لغات أخرى ، لقد أجاد الأسبانية والفرنسية والألمانية بشكل عصامي، من صنع يديه، تراه يحجل حول مكتبه يتناول بعكازه رواية ألمانية ، يقلب صفحاتها معتزا باستعراض حصيلته من المفردات على مسامع زواره كما كان بمقدوره أن يلقي على مسامعك فصولا كاملة من (جوته) الألماني ، يستطيع أيضا ترديد النشيد الوطني الأرجنتيني (بالأسبانية) كما يحدثك عن المستوطنين الأوائل في

مقاطعة (كويبك) ذات اللسان الفرنسي في كندا ، لقد كانت صفة الاستعراب - إذن - جانبا واحدا من جوانب الاستنارة المشبعة بالروح الإنسانية ، ومن ثم كان يشكل رادعا فوريا أمام أي (لوبي) مؤيد لإسرائيل ، يفضل الطريق السهل في التعامل مع الصراع العربي الإسرائيلي.

كل هذا فقط ؟ كلا ، لقد كان يجيد لغات أخر إضافة إلى لغته الأولى والأم الإنجليزية ، ثم العربية ، ثم الألمانية والفرنسية ، فمن تلك اللغيات - اللغات - العبرية فماذا قال هيوم عنها ؟ لماذا تعلمها ؟ من أجل أن أقرأ (عاموس[1]) رسولي المفضل في لغته الأصلية ، ثم لكي أفهم الإسرائيليين كإسرائيليين وأن أعرفهم من خلال اللغة التي يتكلمونها ، وهي لغة تتخطى حواجز كالجنادل [2] فتتردد أصداؤها في الجبال ، يا الله : لا عجب إذن أن كانوا على هذا النحو من الخشونة ، ثم إن العبرية تسير في خط متواز مع العربية [3].

انتهى كلام العلامة هيوم هوران ، بقى تعليقنا المقتضب عليها ، لنعود سراعا سراعا إلى بقية حديثنا حول شفاهية العربية إلى أن نزل القرآن الكريم ، فنقول :

١ - سوف نبدأ من آخر النقاط التي نقلناها عن هوراني ، وهي اللغة العبرية التي وصفها بصفتين :

أ - تخطت حواجز ضخمة ، كما تتخطى مياه النهر الجنادل في مجراه ، ولشدة الاصطدام تتردد أصداؤها وتنتقل إلى الجبال التي تحوط النهر ، أو تجثم بالقرب منه ، هو في النهاية يصف العبرية بالخشونة ، تلك الخشونة التي

---

(١) أحد أنبياء بني إسرائيل.

(٢) مفرد جَنْدل ، وهي صخور تعترض مجرى النهر ، اسمها الشائع (الشلالات) مثل الجنادل التي تعترض نهر النيل ، والتي تبدأ من أسوان ، انظر المعجم الكبير ، مادة (ج ن د ل).

(٣) راجع ما ذكره هوران في كتاب (الحملة الأمريكية ...) تأليف روبرت كابلان ، ترجمة الصديق محمد الخولي ، القاهرة ١٩٩٦ ، انظر ص٤٣٣ وبعدها.

انتقلت إلى المتحدثين ، خاصة من عاش في ظلال الدولة العبرية.

والحق أن هؤلاء القوم الذين وسمهم هوران بالخشونة ، أو الخشونة الشديدة لهم جديرون بهذا الوصف ، وأكثر منه ، اقتلعوا شعبا كاملا من أرضه ، خربوا عليه كل شيء في حياته ، وما يزالون ، ولهذا حديث آخر في مكانه وموقعه.

ب- وصف هوران العبرية بأنها تسير في خط متواز مع العربية ، ذلك أنها خرجت من عباءة العربية ، وإن في مرحلة ما من التاريخ ، ثم شقت طريقها مبتعدة عن العربية في تطورها وتغيرها ، وانتقالها من حال إلى حال ، ولعل هوران يقصد العبرية القديمة على وجه الخصوص ، أو عبرية العهد القديم.

الكتابة العبرية هي الأخرى نوع من الكتابة العربية في فترة ما من فترات التاريخ ، وإن اختارت صورة الحروف المنفصلة ، غير المتصلة ببعضها ، كما فعلت العربية ، أو رغبة من هؤلاء القوم في مفارقة العربية وعدم التشبه بها ، والشيء الذي جعل الكتابة العربية تختلف عن العبرية أن العلماء العرب نجحوا في تطوير الكتابة العربية التي أضحت مثلا أعلى بين نظم الكتاب في شتى لغات العالم ، في حين جمدت العبرية على نظامها السابق العتيق ، فأبقته ، كما هو.

٢- إن هوران يقدم نتيجة مهمة لمرحلة الشفاهية ، وهي أن العربية من أجمل ما تسمعه الأذن من إيقاع ، كما يصف العربية بأنها كالبلّور ، أو تشكلت كما تشكل البلّور[١] في شدة تناسقه وتآلفه مع بعضه ، تناسق الأصوات والمقاطع والكلمات والجمل.

---

(١) نوع من الزجاج شديد النقاء.

كل هذا كان في فضاء الله الواسع ، في الصحراء الواسعة الهادئة الوادعة ، دون صخب أو ضوضاء ، ما جعل العربي يلتقط الأصوات والمقاطع بشكل سهل ميسور.

على أي الأحوال فإن مرحلة الشفاهية لم تثمر فقط في جمال الإيقاع والعذوبة في السمع ، وإنما كان من نتائجها أيضا :

- الاختصار والتركيز.
- حرية الحركة داخل الجملة ، بالتقديم والتأخير والحذف ... الخ.
- سهولة حفظ ما يسمع.

وكل هذي الثمر طبعت العربية بطابع الشعر ، فأصبحت لغة شاعرة كما عبر العقاد، وكما سياتي تفصيله، ما يعد مقدمة ضرورية ومنطقية لنزول القرآن الكريم ، الذي جاء للبشرية جمعاء ، العرب وغير العرب، من يعرف لغتنا ، ومن لا يعرفها ، فحمل جماع كل صفات اللغة الشفاهية.

بعدها وبمجرد نزوله ، بدأت مرحلة الشفاهية تسلم الراية للمرحلة التالية ، العربية ستصبح لغة الحضارة الإسلامية التي بدأ قرآنها في أول آية : (اقرَأْ باسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۞ خَلَقَ الإنسَانَ مِنْ عَلَق ۞ اقرَأْ وَرَبُّكَ الأكْرَمُ ۞ الَّذِي عَلَّمَ بالقلمِ ۞ عَلَّمَ الإنسَانَ مَا لمْ يَعْلَمْ).

أول سورة من القرآن تخاطب النبي الأمي تأمره بالقراءة مرتين اثنتين ، ثم يأتي ذكر القلم أداة للتعليم ، ولم يك للعرب عهد كبير بالقراءة والكتابة والقلم.

وتأتي بعد ذلك سورة باسم القلم (ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ) وهي سورة مكية أيضا ، أي جاءت في بداية نزول القرآن في المرحلة المكية كما جاءت الكلمة

مجموعة أيضا ، في سورة لقمان : (وَلَوْ أَنَّمَا فِي الأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ [1]) لقد جاءت كلمة (أقلام) صريحة هنا ، أما كلمة (مداد) فلم ترد صريحة في هذي الآية ، وإن جاءت معنى ولمحا ، كيف ؟ ولو أن كل أشجار الأرض جعلت أقلاما ، ثم جئنا بمداد من البحر تعاونه مياه سبعة أبحر أخرى أو تعاونه وتمده مياه بحار أخرى كثيرة ما نفدت وانتهت كلمات الله الدالة على عظمة الله وصفاته وجلاله.

ولكن كلمة (مداد) جاءت صريحة في آية الكهف ، وهي بنفس المعنى ، وفي ذات الاتجاه : (قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَاداً لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَداً [2]).

كما جاءت كلمة (مداد) في أحاديث المصطفى (ﷺ) كما في (يوزن يوم القيامة مداد العلماء ودم الشهداء ، فيرجح مداد العلماء على دم الشهداء) وصيغ هذا المعنى شعرا :

يا طالبي علم النبي محمد	ما أنتم وسواكم بسواء [3]
فمداد ما تجري به أقلامكم	أزكى وأرجح من دم الشهداء

وهذا ما يشير توكيدا إلى أن هذه الأمة تنتقل من الأمية ، وغياب القراءة والكتابة ، إلى أمة وحضارة يرجح فيها مداد العلماء على دماء الشهداء ، حيث تفشو الكتابة والقراءة على العكس تماما مما كانت عليه قبل بعثة المصطفى ، صلوات ربي عليه وتسليماته.

---

(١) آية ٢٧.
(٢) ١٠٩ الكهف.
(٣) العجلوني : كشف الخفاء... حديث رقم ٣٨١ ، آخر حديث في الكتاب.

بقي أن نشير إلى مادة (ق ر أ) و (ك ت ب) في الكتاب الكريم ؟ لقد وجدنا أن المادة الأولى وردت ١٧ مرة في صيغ الأفعال فقط ، كلمة (قراءة) المصدر لم ترد مطلقا ، وردت كلمة (القرآن) ٥٨ مرة (قرآنا) ١٠ مرات (قرآنه) مرتين فقط.

مادة (ك ت ب) وردت في القرآن ٣٠٠ كرة تقريبا ، مع الإقرار أن هذي المادة قد تأتي بمعنى فرض وشرع ، كما في (وَقَالُواْ : رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا [١] الْقِتَالَ - يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ : كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ [٢]مِن قَبْلِكُمْ).

لكنها في كثير من الأحيان تأتي المادة بمعنى الكتابة المعروفة المألوفة :

- (فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُمْ مِّمَّا يَكْسِبُونَ [٣])
- (وَلاَ تَسْأَمُوْاْ أَن تَكْتُبُوْهُ صَغِيراً أَو كَبِيراً إِلَى أَجَلِهِ [٤])
- (وَإِن كُنتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُواْ كَاتِباً فَرِهَانٌ مَّقْبُوضَةٌ [٥])

وكما لم تأت كلمة (القراءة) في القرآن أيضا لم تأت كلمة (الكتابة) لكن المصدرين كليهما وقعا في أحاديث المصطفى (ﷺ) كما نلاحظ في المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي ، ونعطي أمثلة للقراءة ثم الكتابة ، فمن الأول :

- (من كان [٦] له إمام فقراءة الإمام له قراءة) وقع المصدر مرتين في حديث واحد.
- (يؤم القوم أقرؤهم لكتاب الله، فإن كانت قراءتهم سواء فليؤمهم أقدمهم هجرة فإن كانت الهجرة سواء فليؤمهم أكبرهم سنا [٧] ...).

---

(١) ٧٧ النساء.
(٢) ١٨٣ البقرة.
(٣) ٧٩ البقرة.
(٤) ٢٨١ البقرة.
(٥) ٢٨٣ البقرة.
(٦) سنن ابن ماجة ، حديث رقم ٨٥٠.
(٧) السابق حديث ٩٨١.

كما ورد المصدر (كتابة) في بعض أحاديث المصطفى (ﷺ) وإن كان وروده قليلا ، هو أقل من لفظة (القراءة) كما جاء في تفسير آية [1] النور (وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْراً وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ) وفي تفسير الأمر الأخير هنا (وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ) أي أن على السيد أن يعين عبده إذا اتفقا على ثمن معين أو عمل معين لقاء حريته ، بأن يترك جزءا من الثمن المسمى بينهما ، هذا الجزء حددته بعض الأحاديث المروية بالربع ، فقد روى أمير المؤمنين (ﷺ) عن ابن عمه المصطفى بأنه (ربع الكتابة) أي ربع الثمن المتفق عليه في اتفاق المكاتبة.

خلاصة القول من كل ما سبق في تفسير هذي المادة الثامنة من دستور لغتنا أن العرب كانوا قوما أميين باعتراف سيد هذي الأمة : (نحن أمة أمية ، لا نكتب ، ولا نحسب).

كانت الكتابة ـ فضلا عن القراءة ـ قليلة نادرة بين بني يعرب ، يجب الاعتراف بأن الكتابة لم تك معدومة تماما بالمطلق ، إنما كانت غير فاشية ولا منتشرة في العرب ، ولهذا تفصيل في مظانه ومصادره ، وكان كل هذا مقدمة لأن ينزل القرآن على رجل أمي تماما ، في أمة أمية ، حتى تكتمل عناصر الإعجاز لهذا الكتاب الكريم.

وحتى يأتي قمة في إعجازه ونظمه ، مسك ختام مرحلة الشفاهية التي أدت إلى مجموعة من الخصائص الأصيلة في لغتنا العربية ، بحيث غدت لغة شاعرة نثرها وكلامها أقرب إلى الشعر في اختصاره ، حيث تحذف العربية كل ما يفهم ـ كما سيأتي ـ وعنه تستغني ، كما أن في الكلام موسيقية وحلاوة وعذوبة في السمع ، وحرية الحركة داخل الجملة بالتقديم والتأخير والفصل بين المتلازمين ... الخ.

(١) الآية ٣٣.

وقد تمثل هذا في القرآن أجمل تمثل وأكمله وأجله حتى اعترف هذا المشرك العتيد الوليد بن المغيرة بأن له - للقرآن - لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإن أعلاه لمثمر ، وإن إسفله لغدق - مغدق - وإنه ليعلو ، وما يعلى عليه.

وحين استتبت أركان الشفاهية وحضرت بصماتها المباركة في أسس العربية وأساسها ، بدأت المرحلة التالية بأمر الله - تعالى - اقرأ ، حيث تأسست حضارة جديدة انبنت على القراءة وعلى الكتابة ، حتى وصل الأمر إلى أن رجح مداد العلماء على دماء الشهداء ، قمة الاعتبار والإعظام لما يكتبه العلماء ويسطرون ، لا نجدها في أية حضارة أخرى ، غير الحضارة الإسلامية العربية ، إنها حضارة إسلامية العقيدة والبنيان ، عربية اللغة والحصن واللسان.

المادة التاسعة

{٩}

العربية لغة شابة ناضرة ، لا تتغير بسرعة ، كما في اللغات الأخرى ، ومن ثم فإن موقع المعجم التاريخي للعربية يختلف تماما تماما عن المعجم التاريخي في غيرها من لغات العالم

نقلنا قبلا في شرح المادة الأولى من دستور العربية بيتي عنترة :

ولقد ذكرتك والرماح نواهل	مني وبيض الهند تقطر من دمي
فوددت تقبيل السيوف لأنها	لمعت كبارق ثغرك المتبسم

شعر يقطر سلاسة في التعبير ، وقدرة على صوغ هذا الموقف الفني وشحنه بالعناصر النفسية ، في تيكمُ العبارة الموجزة المختصرة ، تعبير ساحر أخاذ ، يفيض عذوبة واحتشاما وعفة ، بعيد ناءٍ تماما عن الإسفاف والتبذل ، في تصوير مشاعر العشق والغرام والهيام [١].

انظر - أيها القارئ - إن القائل ليس شاعرا معاصرا ، أو حديثا ، كلا ، كلا ، إنه الشاعر عنترة بن شداد الذي يقدر أنه عاش إلى نهاية القرن السادس الميلادي ، قبل البعثة النبوية الشريفة ، وأقرب الأقوال أن عنترة مات في العشرينيات من عمره

(١) شاهين ، في علم اللغة العام ، ص٢١٨.

الشريف (ﷺ) الذي ولد عام الفيل ٥٧١م ، أي أن عنترة مات في العقد الأخير من القرن السادس ، أي قبل عام ٦٠٠م.

أما الأقوال التي امتدت بوفاة الشاعر إلى ٦١٥م فهي مبالغ فيها ، إذ هي تتناقض مع ما ورد من أن سيد الخلق تمنى أن يرى عنترة لفروسيته ومروءته ولحسن خلاله وصفاته.

جاء في كتاب الأغاني [1] ، في سيرة عنترة ما يلي :

أنشد النبي قول عنترة :

ولقد أبيت على الطوى وأظلّهُ

حتى أنال به كريم المأكل

فقال (ﷺ) : (ما وصف لي أعرابي قط فأحببت أن أراه إلا عنترة).

على أي الأحوال فإن لغة يبدو شعرها القديم جدا الذي يصل عمره إلى بضعة عشر قرنا من الزمان وكأنه حديث جدا جدا أو معاصر لهي لغة قمنة جديرة كل الجدارة أن توصف بأنها لغة شابة نضرة دائما ، لا تتغير بسرعة - كما نجد في اللغيات - اللغات - الأخرى التي تتغير بسرعة فائقة.

فما الأسباب - يرحمك الله - في نضرة الشباب هذي ؟ نلتقط الخيط من المستشرق الروماني دوبريشان [2] ، إذ يقول : تؤكد وتثبت متابعة تطور الأدب العربي طوال تاريخه أن اللغة العربية واحدة موحدة ، ذات رسالة خالدة ، لم يتغير صرفها مدى القرون إلا تغيرا ضئيلا ، كما حفظت هذه اللغة الكثير من متنها

(١) ٨ / ٢٩٨٩.
(٢) دراسة الأدب العربي وترجمته وتلقيه في رومانيا ، المجلة العربية للثقافة ، تونس ٢٠٠٢ ، ص٩٣.

ومفرداتها ،غير أن معانيها تطورت وتوسعت وأثريت باستمرار ، تماشيا مع تطور الحياة والتفكير الإنساني والحضارة والعلم والتقنيات ... ا.هـ

إن المستشرق الروماني يضع أيدينا أو يضع في أيدينا بداية الخيط ، في القضية ، النظام الصرفي في العربية لم يتغير إلا يسيرا ضئيلا قليلا طوال القرون ، ظل كما هو ، لكنه كان من المرونة بحيث لبى احتياجات مستخدمي اللغة وأهليها طوال القرون ، فالنسب وياؤه ما يزالان إلى الآن يستخدمان مع الأسماء بأنواعها ، التصغير من ناحية أخرى يستخدم أيضا ، وإن بشكل أقل ، أو بشكل قليل ، فإذا كان الجناح هو الذي يحمل الطائرة عاليا في الهواء ، فإن (الجنيح) تصغير جناح - وهو جزء صغير متحرك من جناح الطائرة - هذا الجزء الصغير هو الذي يتحكم في الطائرة هبوطا وصعودا.

وما زلنا نستخدم تصغير (كتاب) أي (كتيب) وعصفور ← عصيفير ، ويحاول بعض الكتاب والمتحدثين بالفصحى إحياء صيغ التصغير العربية ، كما أفعل في بعض كتاباتي من تصغير لغات ولغة وكلمة وكلمات إلى (لغيات - لغية - كليمة - كليمات) وكان أستاذنا الدكتور محمد أبو الفتوح شريف -[1] رحمه الله - ينادي (أحمد) بتصغيره إلى (أحيمد) وكنا نقتدي به في تصغير (تامر - عامر - جابر) إلى : (تويمر - عويمر - جويبر) ... الخ ، مع ملاحظة أن التصغير لا يقصد منه التحقير فقط - كما أو نوعا أو شكلا - بل تمتد أغراضه إلى التمليح (التدليل والتدليع) والمفاكهة.

معجم العربية أيضا من ناحية المعنى يتطور ويتطور ليواجه متطلبات الحياة ، كلمة (قطار في الأصل هي : عدد من الإبل والجمال يسير بعضها خلف بعض على

(١) توفى ١٩٩٦م.

نسق واحد) لكنها الآن تعني شيئين :

١- مجموعة من عربات السكة الحديدية ، تسير خلف بعضها تجرها قاطرة.

٢- مجموعة من الجند أو الشرط يسير بعضهم خلف بعض ، كما تسير الجمال خلف بعضها ، كنا في القوات المسلحة نسمع قائدنا يقول : (الصف الأول : انتباه) ثم يقول : (لليمين ، أو للشمال در) فندور حيث يريد ، ونصبح خلف بعضنا ، ومن ثم يصبح الصف أو الذي كان صفا عندما كنا واقفين إلى جانب بعضنا ، يصبح هذا الصف قطارا ، فيقول : (القطار الأول : انتباه) لقد تحول الصف إلى قطار ، وهكذا لبت اللغة العربية احتياجات أهليها ، فأعطت ذات الكلمة القديمة العريقة مدلولات حديثة في السكك الحديدية والشرطة والجيش.

مثال آخر (الطيار) الغبار الطيّار ، سريع الانتشار ، وفرس طيّار سريع العدو كأنه يطير مثل الطائر في السماء ، وعندما جاءت غزوة مؤتة سنة ٨ هـ واستشهد القائد الشاب ، ابن عم النبي (ﷺ) ابن الثلاثة والثلاثين عاما ، جعفر بن أبي طالب ، وقبل استشهاده (ﷺ) قطع جناحاه ، يداه الاثنتان ، وعضداه كلاهما ، عوضه الرب - سبحانه وتعالى - عن هذي المحنة بمنحة أخرى في الجنة، أعطاه جناحين بهما يطير حيث شاء في جنان عدنان والرضوان، فسمي من يومها بالطيار، قال الشاعر العظيم دعبل بن علي الخزاعي (١٤٨ - ٢٤٦هـ) في تائيته العملاقة (مدارس آيات ...) عن آل محمد :

وإن فخروا يوما أتوا بمحمد	وجبريل والقرآن ذي السورات
وعدوا عليا ذا المناقب والعلى	وفاطمة الزهراء خير بنات
وحمزة والعباس ذا الهدى والتقى	وجعفرا الطيار في الحجبات

وعندما جاءت الطائرات في العصر الحديث سمي قائد الطائرة بالطيار - بتشديد الياء - لكن هل استقر بالكلمة المقام والمعنى إلى هذا الحد ؟ كلا ، كلا ، تقلص معناها وتقهقر إلى مهنة جديدة هي راكب الدراجة النارية الذي يطير بدراجته يوصل الطلبات إلى زبائن المحل أو المطعم ، وكأنه يطير بالدراجة أو بدراجته إلى حيث الزبون (العميل) صاحب الطلب ليوصل إليه ما طلب ، هذا الرجل سمي أيضا بالطيار ، وتجد بعض الإعلانات بالصحف تطلب هذه المهنة بمسماها الجديد (الطيار) فكأنه يطير بالدراجة ، كما يطير الفارس بفرسه ، أو كما يطير الطيار بطائرته ، عسكرية ، أو مدنية.

وهكذا انتقل المعنى من الغبار السريع الانتشار إلى الفرس فائق السرعة ، أو راكبه ، إلى قائد الطائرة ، إلى سائق الدراجة البخارية الذي يكلف بتوصيل الطلبات إلى الزبائن في منازلهم.

وكذلكم كلمة (المطار) إنها مكان الطيران ، اسم مكان ، وبطبيعة الحال كان المقصود بالطيران عند العرب القدماء مكان طيران الطيور ، لا الطائرات الحديثة ، التي اخترنا لها هذا المصطلح (المطار) لكنه ليس مكان طيران الطيور - كما كان زمان العربان قديما - هو المكان الذي تبدأ منه الطائرات أو تنتهي إليه وتهبط فيه.

جدير ذكره أن هناك تعبيراً آخر بذات المعنى ، هو (الميناء الجوي) كما يقولون: (ميناء القاهرة الجوي) ولكن كلمة (مطار) وجمعها (مطارات) هي الأكثر شيوعا واستخداما.

كما وجد أيضا (ميناء القاهرة البري) وربما البحري، الكلمات والألفاظ واحدة، ولكن المعاني تتغير ، وتتطور ، وتتحور.

والآن إلى كليمة عن المستوى الصوتي ، ثم أخرى عن النظام النحوي (التركيبي) أو نظام الجملة العربية ، فعن المستوى الأول نوكد ونقول :

من عجب أن وصف الأصوات العربية الذي قدمه سيبويه (ت ١٨٠هـ) منذ القرن الثاني الهجري بقي إلى الآن تردده الأجيال ، جيلا بعد جيل ، بعد جيل ، مجمل ما يلاحظ على وصف سيبويه ما يلي :

- وصف القاف والطاء بأنهما مجهورتان ، وهما مهموستان الآن ، وبلا شك.
- وصف الجيم بأنها شديدة (انفجارية) في حين هي الآن في نطق القراء المصريين المجودين برواية حفص عن عاصم ، هي (انفجارية - احتكاكية).
- وصف الضاد بأنها جانبية كاللام ، وهي الآن انفجارية ، من مخرج الدال ، أو هي النظير المفخم للدال.

من الممكن أن يكون سيبويه أخطأ الوصف ، ومن الممكن ، نقول : من الممكن الوارد المقبول أن يكون حدث تطور في هذه الأصوات ، باقي ما قال سيبويه لا يختلف في مجمله عما يقول علماء الأصوات المعاصرون .

مع الأخذ في الاعتبار أن ما قلناه هنا عن عبقري العربية هو مثال على مقال أن العربية لا تطور ، ولا تتغير ولا تتبدل بشكل متسارع خطير ، وإنما التطور فيها بطيء ، نحن لا ندعي أن ما قلناه الآن هو كل شيء ، في نظام أصوات العربية ، بل هو ملمح مهم من ملامح أصوات العربية.

بقيت كليمه من الكليمات حول نظام الجملة العربية ، لا يزال جسم النظام كما هو ، وإن تطورت بعض التركيب ، تغيرت وتحولت ، هذا مثال ومثال به يتضح المقال :

١- تسمح العربية في بدء جملتها بالأسماء (الجمل الاسمية) والأفعال (الجمل الفعلية) بل تبدأ بالحرف أيضا :

- الله أكبر.
- سبح الله.
- أفي الله شك ؟!

وبصرف النظر عن تفاصيل القصة في كتب النحو العربي ومطولاته ، فإن بعض وسائل الإعلام تحتكر لنفسها الجمل الاسمية وتجنح إليها كثيرا كثيرا ، ودائما أحيانا ، تقول مثلا : (الرئيس في دمياط - الوزير... يعلن - رئيس الوزراء يؤكد...) بدل الجمل الفعلية المناظرة المعبرة عن ذات المعنى.

٢- ومما شاع في وسائل الإعلام أيضا عود الضمير على اسم ظاهر متأخر عن هذا الضمير : (في حديثه أعلن الوزير... - ومن جانبه قال الرئيس...) والمعتاد في تراكيب العربية أن يأتي الظاهر أولا أولا ؛ بعده يأتي الضمير ، أي : (أعلن الوزير في حديثه - قال الرئيس من جانبه).

على أي الأحوال جسم النظام النحوي لا يزال حيا فاعلا ، المبتدأ والخبر ، الفعل والفاعل والمفاعيل ، الحال والتمييز ، النواسخ ، التوابع ... الخ التغيير يأتي في الهوامش والتفاصيل ، ولا يمس جسم التركيب العربي ، ولذا تبقى العربية شابة نضرة ناضرة على مر العصور وكر الدهور.

ولكن ترى ما هو السبب أو الأسباب ؟!

أولا - أن العربية تتمتع بمرجعية خالدة ، القرآن الكريم ، سنة النبي الأكرم ، تراث العربية الضخم العملاق ، ثلاثية عليها تقتات الأمة وترجع ، هي الغذاء والمرجع منذ الصغر ، بل منذ الميلاد ، وحتى الكبر ، بل حتى الوفاة.

منذ يولد الطفل وتعلو صرخاته ، وتصوت حنجرته ، يسمع في أذنيه الأذان والإقامة ، وقبل أن يفارق الدنيا عليه أن ينطق بالشهادتين وربما يسمعهما ممن حوله مذكرين له مكررين لهما.

وبين المهد واللحد ، تبدأ الطفولة بحفظ القرآن الكريم ، ولعل بعض الأطفال يسعدون ويسعدون أهاليهم بحفظه كاملا ، وبعده السنة المطهرة ، ثم إرث العربية الشامخ العظيم.

وحين يكبر هؤلاء الأطفال ليصيروا رجالا ونساء يتعلقون أشد التعلق بهذا الكتاب الكريم استماعا ، وقراءة وفهما ودرسا لمن اسطاع منهم إلى شيء من هذا سبيلا أو طريقا.

إضافة إلى السنة الكريمة وباقي تراث الإسلام ، ومنذ بدأت إذاعة القرآن الكريم من القاهرة ١٩٦٤ في عهد الزعيم الراحل جمال عبد الناصر اقتدت بنا دول عربية أخرى فأنشأت إذاعات للقرآن ، وفي عصر الفضائيات برزت أيضا قنوات متخصصة مخصصة لكتاب الله وسنة رسوله.

المواطن العربي يعيش طوال عمره متعلقا بقرآنه والسنة وتراث الإسلام بشكل عام حتى دخلت كل هذي العناصر إلى صميم ثقافته وكيانه وعقله ، وروحه وفؤاده ، وفي عصر السماوات المفتوحة تصل إليه كل هذي الأشياء صباح مساء ، وفي أي ركن أو رجا من أرجاء العالم وأركانه يعيش هذا الإنسان ، وعلى مدى الساعة.

وبسبب كل هذا تبقى العربية حية نضرة ناضرة لا تشيخ ، ولا تصاب بسرعة التغير والتحول من حال إلى حال ، بل ربما من لغة إلى أخرى.

انظر - عزيزي القارئ - لغيّات - لغات - كثيرة متصدرة الآن من لغات العالم لم يك لها وجود من قرون ، كيف ؟ أول نص أدبي باللغة الفرنسية كان في الربع الأول من القرن التاسع الميلادي ، أما أول نص أدبي باللغة الإنجليزية فقد كان في القرن السادس عشر الميلادي ، فأين كانت هاتان اللغتان قبل هذين التاريخين ، وأين كان أدباهما ، هما وكثير من لغات العالم.

ثانيا - ومن ناحية أخرى فإن هذا التراث العربي المرجعي اعتمد على شي مهم، ربما لا نجده في حضارات ولغيات أخر ، وهو المشافهة ، القرآن الكريم كتاب العربية الأول ، وأس وأساس التراث العربي والإسلامي ، أخذ مشافهة من رب العزة إلى جبريل - عليه السلام - إلى النبي الأكرم (ﷺ) ومنه إلى الصحابة والتابعين ، جيلا عن جيلا ، يتعلمه كل تلميذ ومريد عن شيخه عيانا بيانا جهارا نهارا ، ومن ثم كان هذا المبدأ العظيم في أن القراءة - أي في القرآن الكريم - سنة متبعة كل امرئ يقرأ كما تعلمه من شيخه وإمامه ، ليس له أن يقرأ وحده من المصحف أو من غيره.

هذا الأمر جعل القراءة منذ تلقى الحبيب المصطفى (ﷺ) من جبريل إلى الآن تكاد تكون واحدة ، لا تتغير ولم تتغير إلا في نطاق ضيق جدا ، ما جعل العربية عصية على سرعة التغيير والهرولة نحو التحول والتغير ، وجعلها نضرة ناضرة ، شابة دائما.

ليس القرآن الذي أخذ مشافهة فقط ، بل الحديث أيضا تلقته أجيال عن أجيال مشافهة مواجهة جهارا نهارا ، حتى في العصر الحديث نسمع السنة المطهرة من أفواه العلماء والدعاة إلى الله مباشرة ، أو عبر وسائل الإعلام.

حتى في علوم اللغة وباقي علوم العربية ـ ليس القرآن وحده ـ كانت مصاحبة العلماء والشيوخ عادة متبعة ، بل والرحيل إليهم في بلادهم للأخذ عنهم ، ونعطي أمثلة :

١ـ عثمان بن سعيد (١١١هـ ـ ١٩٧هـ) المشهور بالمصري القبطي ، الملقب بورش ، رحل إلى المدينة المنورة المطهرة ، لا لحج ولا عمرة ولا تجارة ، إنما للقراءة على نافع، في سنة ١٥٥هـ، في شهر واحد قرأ على نافع أربع ختمات، ورجع إلى مصر ، فانفرد برياسة الإقراء ، كان لحسن صوته وجودة قراءته إذا قرأ على شيخه نافع أغشى على كثير من الجلساء [1].

ومن طريف ما يروى عن رأس المدرسة المصرية المميزة في القراءة (ورش) أن تلميذه أبا يعقوب ، يوسف بن عمرو بن يسار ، المدني ، ثم المصري (ت ٢٤٠هـ) الملقب بالأزرق ، وكان محققا ثقة ، ذا ضبط وإتقان ، وهو الذي خلف أستاذه ورشا في القراءة والإقراء بمصر ، وقد لازمه مدة طويلة ، إنه يقول عن شيخه : (كنت نازلا مع ورش في الدار) انظر كيف تكون الملازمة إلى النزول والسكن معه في داره (فقرأت عليه عشرين ختمة ، من حدر وتحقيق ؟) كيف يا أبا يعقوب ؟ يقول : (فأما التحقيق ، فكنت اقرأ عليه في الدار التي يسكنها ، وأما الحدر فكنت اقرأ عليه إذا رابطت معه في الإسكندرية [2]).

الله أكبر ، الله أكبر ، كأن إمام القراءة المصرية أيضا أيضا مرابطا في رباط ذياك الوقت ، ثغر الإسكندرية ، وكان معه تلميذه أيضا ـ وربما غيره ـ حتى في الرباط لازم التلميذ شيخه ، ولم يتركه ، إنها الحضارة العربية الإسلامية العملاقة ،

(١) لطائف الإشارات للقسطلاني ١ / ١٠٠.
(٢) النشر ١/١١٤ ، والحدر القراءة السريعة التي تناسب حالة الرباط ، والتحقيق القراءة المتأنية التي تناسب وتتناسب مع حال الاستقرار في البيت ، إذ لكل مقام مقال.

التي لا نظير لها.

٢- الإمام أبو حنيفة النعمان (ت١٥٠هـ) بقي عامين كاملين يتلمذ على حفيد النبي الأكرم (ﷺ) عامين كاملين ، يقول عنهما : (لولا العامان لهلك النعمان) هذا الحفيد هو جعفر بن محمد الصادق (ت١٤٨هـ).

٣- الإمام محمد البخاري (ت٢٥٦هـ) يقول :

- دخلت إلى الشام ومصر والجزيرة - في العراق - مرتين ، وإلى البصرة أربع مرات ، وأقمت بالحجاز ٦ أعوام ، ولا أحصي كم دخلت الكوفة وبغداد مع المحدثين).

وقال أيضا : لقيت أكثر من ألف رجل من أهل الحجاز والعراق والشام ومصر وخراسان ، فما رأيت أحدا منهم يختلف في هذه الأشياء ، أن الدين قول وعمل وأن القرآن كلام الله [(١)].

لقد لقي الإمام البخاري أكثر من ألف رجل يتفقون على ما ذكر ، وهذا يعني أن من لقيهم من العلماء هم أكثر بكثير جدا جدا من الألف ، إنه لم يتلق الحديث من الأوراق والكتب والصحائف ، إنما من رجال، رآهم ، عرفهم ، أخذ منهم عيان بيانا ، جهارا نهارا ، سمة مهمة من سمات الحضارة الغربية الإسلامية.

٤- ونختم بمثال أخير ، أبو علي الفارسي (ت٣٧٧هـ) وأبو الفتح ، عثمان بن جني (ت٣٩٢هـ) دخل الأول على الثاني في مسجد الموصل وهو اذ ذاك شاب حدث ، كان يتحدث إلى أحد التلامذة يشرح له قلب الواو وألفا في مثل (قام - قال) اعترض أبو علي على ابن جني قائلا له : (زببت قبل تحصرم) وسأل ابن جني :

---

(١) مقدمة صحيح البخاري ١ / ٣٠.

من هذا ؟ قالوا : أبو علي الفارسي ، هل يقوم يتعارك معه ، يعاديه أبد الدهر ؟ كلا وألف كلا ، لقد ترك الموصل حيث يقيم إلى بغداد حيث يقيم أبو علي ، نزل معه في الحال ، لزمه وصاحبه من يومها إلى أن مات شيخه ، سنة واحد ، سنتان ؟ كلا ، قريب أربعين سنة ، يلازمه في السفر والحضر ، يأخذ عنه يصنف كتبه بإشراف أستاذه ورعايته ومباركته ، حتى استجادها ووقعت عنده موقع القبول.

على أي الأحوال فإن الأخذ من أشخاص أحياء مشافهة مواجهة جعل العربية دائما حية على ألسنة هؤلاء الرجال ، تنتقل من جيل إلى جيل ، من الشيوخ إلى تلامذتهم ، فلا تصاب ـ كما اللغات الأخرى ـ بسرعة التغير والتحول ، بل تبقى دائما حية نضرة ناضرة شابة ، تبتعد كثيرا عن مرابض الشيخوخة ، ولا تقترب منها.

ولكن من أين جاء هذا الدرس المهم والمنحى الأهم الأخطر في حضارتنا ؟ إنه درس السماء ، درس الخالق إلى المخاليق، كيف بالله عليك؟ انظر ـ عزيزي القارئ ـ هل أرسل الله للبشر كتابا دون رسول من البشر ؟ كلا وألف كلا ، القرآن هل يكفي وحده دون رسول من منزل القرآن ؟ كلا ، ولو كان هذا يكفي لنزلت الكتب السماوية جميعا من الزبور والصحف والتوراة والإنجيل وغيرها وحدها دون رسول من عند رب العزة.

فالقرآن يقول :

ـ وَمَا أرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ (١) لَهُمْ .

ـ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ (القرآن) لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ (٢).

---

(١) ٤ إبراهيم.
(٢) ٤٤ النحل.

- وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلاَ تَكْتُمُونَهُ (1).
- وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُوْلِي الأَمْرِ مِنْهُمْ (الفقهاء والعلماء والراسخون في العلم) لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ (2).

وفي تفسير ابن كثير لهذه الآية : ذكر بعض الصحابة آية من القرآن فتماروا فيها حتى ارتفعت أصواتهم ، فخرج رسول الله (ﷺ) مغضبا حتى احمر وجهه ، يرميهم بالتراب ، ويقول :

(مهلا يا قوم ، بهذا أهلكت الأمم من قبلكم ، باختلافهم على أنبيائهم ، وضربهم الكتب بعضها ببعض ، إن القرآن لم ينزل ليكذب بعضه بعضا ، إنما نزل يصدق بعضه بعضا ، فما عرفتم منه فاعملوا به ، وما جهلتم منه فردوه إلى عالمه) انتهى الحديث.

انظر لقد اختلفوا حول القرآن والرسول (ﷺ) حاضر شاهد على مسمع منه ومرأى ومقرب ، فما بالنا بعد وفاته (ﷺ) وبعد وفاته وانقطاع النبوة هل ترك أمته هملا ، لا ناصح لهم ، ولا رائد ، ولا قائد ؟ كلا ، لقد ركزت السنة المطهرة على عدة أمور بعد انقطاع النبوة والوحي ، ما هي يرحمك الله ؟ إنها :

١- العلماء ورثة الأنبياء.
٢- علماء أمتي كأنبياء بني إسرائيل.
٣- ذهبت النبوات وبقيت المبشرات (الرؤى الصادقة).
٤- الرؤيا الصادقة جزء من ٤٦ جزءا من النبوة.

(1) ١٨٧ آل عمران.
(2) ٨٣ النساء.

ونعود مرة أخرى إلى الصحابة عندما يطيعون الرسول (ﷺ) وعندما يعصون:

١ـ في معركة أحد ترك الرماة أماكنهم ، وعصوا الأوامر الصريحة المشددة من القيادة ؛ فكانت الكارثة التي أودت بسبعين من خيرة الصحابة ، على رأسهم أسد الله ، الحمزة (ﷺ) وأرضاه.

٢ـ في طاعون عمواس (١٨هـ) توقف الصحابة (ﷺ) في (سرغ) شمال المملكة العربية السعودية الآن عندما سمعوا عن الطاعون الذي راح ضحيته من المسلمين فقط ٢٥ ألفا ، سألوا أنفسهم هل يسيرون إلى (عمواس) حيث الطاعون ، أم يعودون أدراجهم ، وهنا رجعوا إلى السنة المطهرة ليجدوا أمر الرسول (ﷺ) كما يلي : (إذا كان) أي الطاعون والوباء (بأرض وأنتم بها ، فلا تخرجوا فرارا منه ، وإذا سمعتم به بأرض ، فلا تقدموا عليه) صدق رسول الله (ﷺ).

وهنا اتخذ عمر بن الخطاب (ﷺ) قرارا بالعودة ومن معه إلى المدينة وعدم استمرار السير إلى فلسطين، ولكن عمر يواجه بسؤال مهم : هل نفر من قضاء الله ؟ فتأتي الإجابة المنطقية : نعم ، نفر من قضاء الله [1].

٣ـ ونختم ما سبق بواقعة رفع المصاحف في صفين (٣٧هـ) [2] ، أو قل فاجعة رفع المصاحف ، عندما استحر القتل بالمعسكر المعادي لأمير المؤمنين ـ علي بن أبي طالب ـ ورأى الهزيمة المرة دانية القطاف لجأ إلى هذه الحيلة الخبيثة الماكرة ، رفع المصاحف ثم أعلن الخوارج على الأمير شعار : (الحكم لله ، لا لك يا علي) نعم الحكم لله ، إن الحكم إلا لله ، لا لأحد من المخاليق.

---

(١) راجع تفاصيل طاعون عمواس في كتابنا (الجوانب الأمنية في الشريعة الإسلامية) ص٧١ ، ٨٣.

(٢) كانت تقع إلى الشرق من حلب شمال دمشق ، معنى هذا أن معسكر الإمام علي وشك تحقيق انتصار حاسم ، يفتح الطريق نحو دمشق عاصمة التمرد.

تمخض هذا الشعار الكبير الخادع إلى أن سلم مصير الأمة إلى رجلين ، أحدهما ركن مهم في الجبهة المعادية للإمام هو عمرو بن العاص صاحب الفكرة ، والآخر أبو موسى الأشعري لينتهي الحوار بينهما إلى فاجعة أخرى أدهى وأمر من كل الفواجع والفواقر ، يتقدم الصحابي الجليل الذي مثل الإمام في التحكيم إلى الناس بخلع إمامه عليّ ، ويتقدم الآخر بتثبيت صاحبه معاوية.

(ولو ردوه) أي هذا الخلاف (إلى الرسول) أي رسول ؟ لقد مات الرسول ، لكنه لم يترك أمته من بعده هملا سبهللة ، لا رابط لها ، ولا راعي لها ، كلا وألف كلا، إن الآية تكمل : (وَإِلى أوْلِي الأمْر مِنْهُمْ لعَلِمَهُ الَذِينَ يَسْتَنبِطونَهُ مِنْهُمْ) من هم أولو الأمر منا ؟ إنهم ورثة الأنبياء ، العلماء الراسخون في العلم ، الفقهاء في أمور الدين وشئون الحياة.

ولم يك على ظهر البسيطة أعلم ولا أفقه ولا أخلص من ابن أبي طالب ، ما أقلت الغبراء ولا أظلمت السماء من يدنو ويقترب من الوصي ابن عم النبي :

ولو قلدوا الموصى إليه زمامها	لزمَّت بمأمون على العثرات
أخي خاتم الرسل المصطفى من القذى	ومفترس الأبطال في الغمرات
فإن جحدوا كان الغدير شهيده	وبدر وأحد شامخ الهضبات
وآي من القرآن تتلى بفضله	وإيثاره بالقوت في اللزبات
وغر خلال أدركته بسبقها	مناقب كانت فيه مؤتنفات
مناقب لم تدرك بكيد ولم تنل	بشيء سوى حد القنا الذربات
نجي لجبريل الأمين وأنتمُ	عكوف على العزى معا ومناة

صدقت فيما قلت يا دعبل ، في كل كلمة نظمها.

ليس هذا فقط ، بل كان حول أمير المؤمنين ثلة من خيرة صحابة ابن عمه ، ومن البدريين ، كان على القوم أن يرجعوا إليهم ، كما فعل عثمان بن عفان (ﷺ) عندما طلب أهل مصر أن يكون محمد بن أبي بكر أميرا على بلادهم ، لقد قال لهم : (ليس هذا لكم ، وإنما لأهل بدر) وجاء من كان في المدينة ساعتها من أهل بدر ، كان على رأسهم أمير المؤمنين على الذين وافقوا على المقترح المصري.

وكان هذا التحكيم بداية الفواقر التي نزلت على رءوس المسلمين ، مقتل الإمام الحسن ، ثم فاجعة كربلاء ٦١ هـ ، واقعة الحرة المشئومة ٦٣هـ ... هذي المآسي الموجعة الفاجعة ، وتحول الخلافة الراشدة إلى ملك عضوض ، ووضع أسس الشر والفجور في أهم مفاصل الأمة وجسدها إلى يوم الناس هذا.

على أي الأحوال فإنا نود تحليل هذه الفاجعة المرة بشيء من التفصيل في مكانه.وحسبي الآن أن أقول إن الناس في زحمة المؤامرات والفجرات والخيانات نسوا أحاديث قائدهم الأول ، محمد (ﷺ) ومنها :

جاء في المعجم الكبير [1] للطبراني : (... وإني أوشك أن أدعي فأجيب ، وإن تارك فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدى ، كتاب الله) فقط ؟ كل ، لقد قام المصطفى وأخذ بيد علي (ﷺ) فقال : (يا أيها الناس : من أولى بكم من أنفسكم ؟) قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : (من كنت مولاه فعلي مولاه).

وفي الطبراني أيضا : (إني تارك فيكم الثقلين ، كتاب الله وعترتي ، أهل بيتي، وإنهما لن يتفرقا حتى يردا عليَّ الحوض).

(١) ٥ / ١٧٢.

الأمر واضح هنا بإتباع القرآن وإتباع أهل البيت أو عترته ، لكن العترة عصيت جهارا نهارا ، بل زعيم العترة ورأسها ، الذي نص الرسول صراحة في قول صراح وضاح : (من كنت مولاه فعلي مولاه) لكن القوم عصوه وآذوه.

وقد يقال : إن رواية أخرى للحديث ، هي : (... وسنتي) بدل (وعترتي) أهل بيتي ، نعم. هذا صح وصحيح ، وحق جدا وحقيق ، ولهؤلاء نقول لهم ارجعوا إلى باب الإمارة في صحيح مسلم ، وليسامحنى هؤلاء القوم ويعذروني في أن أقدم لهم حديثا واحدا فقط ، من باب الإمارة ، هذا الحديث برويه عبد الله بن عمرو بن العاص:

كنا مع رسول الله (ﷺ) في سفر فنزلنا منزلا ... إذ نادى منادي رسول الله (ﷺ) : الصلاة جامعة ، فاجتمعنا إليه ، فقال : (إنه لم يكن نبي قبلي إلا كان حقا عليه أن يدل أمته على خير ما يعلمه لهم ، وينذرهم شر ما يعلمه لهم) أي من أمور المستقبل (وإن أمتكم هذه جعل الله عافيتها في أولها ، وسيصيب آخرها بلاء وأمور تنكرونها) ثم قال : (ومن بايع إماما فأعطاه صفقة يده ، وثمرة قلبه ، فليطعه - إن استطاع - فإن جاء آخر ينازعه) ماذا نصنع يا محمد ؟ قال بوضوح شديد ، لا لبس فيه ولا تلميح : (فاضربوا عنق الآخر).

الناس هنا خالفت صريح الأمر النبوي ، فعلوا العكس والنقيض ، لقد أطاعوا الثاني ، وعصوا الأول ، الأمير الذي بايعوه بصفقة اليد وثمرات الفؤاد.

لكن الإمام علي برغم هذي الفواجع التي تحطم الشم من الجبال الرواسي ، وبرغم الغدرات والفجرات والتآمرات واصن تجييش الجيوش ، وحشد الحشود ، ولولا قضاء الله باستشهاده ٤٠ هـ (ﷺ) بضراعة منه : (اللهم اقبضني إليك فقد

سنمتهم وسئموني) لتمكن في النهاية من القضاء على الفتنة ورد الناس إلى الحق والصواب .

والشيء بالشيء يذكر فلا يعاب من أحد ولا ينكر، لقد هزمت الجيوش العربية هزيمة مرة ١٩٦٧ م ولكن الزعيم جمال عبد الناصر أعاد تنظيم الصفوف وتجيش الجيوش وحشد الحشود مبادرا إلى حرب الاستنزاف أولا فورا وبسرعة ،وحين جاء قدر الله بوفاته ١٩٧٠ كانت الجيوش المصرية والعربية جاهزة لاستعادة الكرامة في سنة ١٩٧٣ .

على أى حال فإن بطل التحكيم ومهندس الفاجعة عندما احس بالموت يهرول إليه دعا حرسه ، فقال لهم :

- أي صاحب لكم كنت ؟
- كنت لنا صاحب صدق ، تكرمنا وتعطينا.
- إنما كنت أفعل ذلك لتمنعوني من الموت ، وإن الموت قد نزل بي ، فامنعوه عني.
- نظر القوم بعضهم إلى بعض ، ثم قال أحدهم : والله ما كنا نحسبك تتكلم بالعوراء ، يا أبا عبد الله ، قد علمت أنا لا نغني عنك من الموت شيئا.
- أما والله ، لقد قلتها، وإني لأعلم أنكم لا تغنون عني من الموت شيئا ، ولكن والله ، لأن أكون لم أتخذ منكم رجلا قط يمنعني من الموت أحب إليّ من كذا وكذا ، فيا ويح ابن طالب ، إذ يقول : (حرس كل امرئ أجله) ثم قال عمر : اللهم : لا بريء فأعتذر ، ولا عزيز فأنتصر ، وإلا تدركني برحمة أكن من الهالكين ، اللهم : إنك أمرتني فلم أأتمر ، وزجرتني فلم أنزجر.

وروي أن عمرو بن العاص وهو في سياقه إلى الموت حول وجهه إلى الحائط ، يبكي طويلا ، يسأله ابنه عبد الله :

- ما يبكيك ؟ أما بشرك رسول الله ؟
- إن أفضل مما تعد عليّ شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمدا رسول الله ، قد كنت على أطباق ثلاثة :

١- قد رأيتني فما في الناس أبغض إليّ من رسول الله ، ولا أحب إليّ من أن أستمكن منه فاقتله ، فلو مت على هذه الطبقة لكنت من أهل النار.

٢- ثم جعل الله الإسلام في قلبي ، فأتيت رسول الله (ﷺ) لأبايعه ، فقلت :

- ابسط يمينك أبايعك ، فبسط يده ، ثم إني قبضت يدي.
- مالك يا عمرو.
- أردت أن أشترط.
- تشترط ماذا ؟
- أشترط أن يغفر لي.
- أما علمت - يا عمرو - إن الإسلام يهدم ما قبله، وأن الهجرة تهدم ما قبلها.

يعقب عمرو : فقد رأيتني ما من الناس أحب إليَّ من رسول الله (ﷺ) ولا أجل في عيني منه ، ولو سئلت أن أنعته ما أطقت ؛ لأني لم أك أطيق أن أملأ عيني إجلالا له ، فلو مت على تلك الطبقة رجوت أن أكون من أهل الجنة [(١)].

٣- ثم تلبست بالسلطان وأشياء ، فلا أدري عليّ أم ليّ ؟.

ونبقي قليلا مع وصف عمرو بن العاص للموت، أو قل : لموته هو، إذ يقول : أجدني أذوب ، ولا أثوب (أي : أضعف وأهزل ، ولا أعود صحيحا ، كما كنت) وأجد نجوى أكثر من رزني (ما يخرج مني أكثر مما يدخل) فما بقاء الكبير على هذا.

---

(١) راجع طبقات ابن سعد ٣١٣/٤ ، وأسد الغابة ١٧٥/٤.

و هكذا فإن الإنسان عندما يحضر أجله لم يدخل إلى جوفه طعام ولا شراب ، لن تموت نفس حتى تستوفي رزقها - أولا - ثم أجلها ، نهاية الأجل إذن تبدأ برفض الجسم ما يدخل إليه ، فإن كان هذا كانت نهاية الأجل على الأبواب ، وملك الموت على مسافة منه قريبة ، وغير بعيدة.

ويبدو أن عمرو بن العاص عانى كثيرا ، ربما لعدة أيام سكرات الموت بدليل هذي الحوارات الطويلة معه ، خاصة مع ابنه عبد الله :

- يا أبت ، إنك كنت تقول : عجبا لمن نزل به الموت وعقله معه ، كيف لا يصفه !! فصف لنا الموت ، وعقلك معك.
- يا بني الموت أجَل من أن يوصف ، ولكني سأصف لك منه شيء ، أجدني كأن على عنقي جبال رضوى ، وأجدني كأن في جوفي شوك السلاء ، وأجد كأن نفسي تخرج من ثعب [1] إبرة.

وأخيرا قدم عمرو وصفين عجيبين لخروج الروح :

١ - كأن الأقطان قد علقت بالأشواك، أو الصوف علق بالشوك ، وأنت تحاول تخليص القطن أو الصوف من هذي الأشواك ، عملية شاقة شاقة.

٢ - أحس كأني عصفور يقلى في الزيت ، لا يخلص مما هو فيه ، ولا يموت.

مات عمرو بن العاص واليا على مصر ، وبها دفن (٤٣ هـ) وقد بقي في ولايتها ٣ سنوات أو أقل.

بقي في الجعبة حكاية نحكيها في النهاية، نختم بها حديث الموت والاحتضار ، إذ يحكى أن سيد الخلق (ﷺ) حضر احتضار أحد أحبانه من أنصاره ، نظر سيد الخلق

---

(١) طبقات ابن سعد ٤ / ٣١٦.

إلى ملك الموت ـ ويبدو أن الرجل كان يعاني سكرات الموت والاحتضار ـ ليقول له كلمة ، يجب أن نقف أمامها مليا مليا ، إنه يقول :

أرفق بصاحبي ؛ فإنه مؤمن.

ملك الموت يبشره (ﷺ) : طب نفسا ، وقر عينا ، واعلم أني بكل مؤمن رفيق[1].

انظر إن الرسول (ﷺ) لا يقول لملك الموت : ارفق به لأنه صاحبى ، فهم ليسوا سواء ، ككل البشر والخلق،لكنه يقول بوضوح شديد : ارفق بصاحبى! لماذا ؟ يقول : لأنه مؤمن ، ولذا كان وعد الملك أن يكون رفيقا ـ فقط فقط ـ لكل مؤمن .

هذي البشارة التي يخلدها القرآن الكريم في سورة فصلت : (إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ۞ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ) ٣٠ ، ٣١ .

والآن عود سريع هرولة وحدرا إلى استمرار نضارة العربية وشبابها الدائم ثم المستمر الدائب ، ومن أسباب هذا أن حضارتنا لم تنقطع بانتهاء النبوات ، بل استمرت في ورثة الأنبياء ، علماء الأمة ، وأن هذي الحضارة كانت حضارة متصلة الأجيال والقرون ، أخذ القرآن والسنة وتراث العربية بشكل مباشر جهارا نهارا ، جيلا حيا عن جيل عن جيل ، إلى أن نصعد إلى التابعين ، ثم الصحابة ، ثم نبي الأمة عن جبرائيل عن رب العزة.

(١) ابن حمزة : البيان والتعريف ... ١ / ١٢٢.

لكل هذي الأسباب ظلت العربية أداة هذي الحضارة ، وروحها المعطاء حية خالدة متجددة ، لا تتغير وتتحور بشكل سريع ، كما حدث للغات الأخرى.

زميلنا المتخصص في الجغرافيا يحكي لي دائما أنه قرأ في شبكة الإنترنت أن بعض الدول الغربية - بريطانيا - تحفظ وثائقها المهمة باللغة العربية ؛ لأن التغير لا يسرع إليها.

والآن الآن ننتقل إلى المعجم التاريخي في اللغة العربية ، نبدأ برأي العلامة العقاد ، ثم نثني بما نراه :

يقول العقاد : إننا لا نحتاج كثيرا إلى التسلسل التاريخي في وضع معجماتنا الحديثة؛ لأن هذا التسلسل التاريخي ضروري في اللغات التي يكثر فيها إهمال الكلمة في معنى ، وسيرورتها في معنى آخر ، لكنه لا يبلغ هذا المبلغ في العربية ، حيث نجد الكلمة مستعملة في جميع معانيها ، على السواء، وعلى درجات متفاوتة [1] ... ا.هـ.

هذا حق وحقيق ، وصح وصحيح ، ونحن الآن نؤيد تماما تماما ما قال العقاد - رحمه الله - ولكن تحت إلحاح كثير من الفضلا - الفضلاء - الغيارى على العربية قرر مجمع اللغة العربية بالقاهرة تشكيل فريق عمل لإعداد المعجم التاريخي العربي ، أو: المعجم العربي التاريخي ، من القلب نضرع إلى الله أن يتم قريبا إنجاز هذا العمل ، لينضم إلى أعمال المجمع السابقات الراندات ، لكني أتمنى أن يقف المعجم التاريخي وقفة مناسبة أمام خريطة الكلمة في القرآن الكريم ، وأن تحلل هذي الخريطة تحليلا عميقا ، فإن لم ترد في القرآن ولو لمرة واحدة سألنا أنفسنا : لمَ لمْ ترد في الكتاب العزيز.

(١) اللغة الشاعرة ، ص٣٢.

وكذلك بالنسبة لأحاديث المصطفى (ﷺ) تماما كما فعلنا في كل دراساتنا بدءا من كتاب (من ألفاظ اللغة في القرآن الكريم) ١٩٨٩ ، وإلى الآن ، فنحن نعول كثيرا على خريطة الكلمة في القرآن والحديث ، إن هذي المقارنة تضع الكلمة في سياقها ومكانها الصحيح في معجم العربية ، وتمنع عنها كل لبس أو خلط في استخدامها ، وتداولها على الألسنة ، وعلى الأقلام.

وأعطي من خلال تجاربي ودراساتي السابقة مثالا ، واحدا فقط :

إن كثيرا من المتحدثين في أي حفل أو اجتماع شمل لا يملون تصدير كلامهم بآية : (رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ [1] وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ) إننا إذا راجعنا خريطة تعبير (افتح بيننا وبين ...) لوجدناه لا يأتي إلا عند الاختلاف ، ويأس النبي من اهتداء قومه ، لذا هو يضرع : ربنا احكم بيني وبينهم بالحق ، وأنت خير الحاكمين ، إن هذا التعبير يشبه ما يقول المصري عندما يظلم من أحد ، أو جماعة (منك لله أو : منكم لله).

هذا التعبير على أي حال لا يصلح عند الاتفاق والائتلاف ، إنما يستخدم عند اليأس والاختلاف ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون ، أو لا يفقهون.

والآن حان الانتقال إلى المادة العاشرة من دستور لغتنا العربية.

---

(١) ٨٩ الأعراف.

محتويات الحلقة الثانية

من دستور اللغة العربية